الجماهير
نبض حلب
تصدر عن مؤسسة الوحدة للصحافة والطباعة والنشر والتوزيع - حلب
العدد 15176 - الأربعاء, كانون الأول 27, 2017

فعلى الراغبين التواصل مع إدارة الصحيفة في منطقة العبارة مبنى صحيفة الجماهير طابق أول أمام جامع العبارة لتقديم (cv) تتضمن الشهادة العلمية أو الخبرة المهنية

الفنان الراحل فاتح المدرس

العدد: 13333
خميس, 2011/05/12

الجماهير

تفرد وغنى في طليعة التجارب التشكيلية

من يقف أمام لوحات المدرس لن يكون أمام مساحات ملونة ومكسوة بالجماليات البصرية بل أمام عالم سحري متكامل التعبيرية، تتداخل فيه الوجوه والأقنعة والشخوص الملتصقة بالأرض كعنصر من عناصرها الطبيعية،

وكأنه بذلك يؤكد انحيازه نحو ريفية كانت النقطة التي انطلق منها ومضى في تجلياتها متحديا ومطورا ومنتميا إلى تلك الطفولة البعيدة التي عاشها في إحدى القرى التابعة لمدينة حلب ، لكن هذه الشخوص التي يبنيها المدرس كأعمدة، أو كقطع حجرية قلما تمنح الألفة بقدر ما تمنح الأسى وإنها شخوص تشبه شواهد القبور، أو أعمدة البيوت الحجرية، لكنها وفي أغلب الأوقات تدنو من كونها كائنات ممسوخة تشبه إلى حد كبير حيزها الزماني والسياسي وعن هذه الحالة الموحشة قال الفنان الراحل فاتح المدرس : تسربت الوحوش إلى لوحاتي بعد أحداث حرب 1967، وازدادت مع الحرب الأهلية اللبنانية.

مع بداية الخمسينيات أخذ فاتح يطرح نفسه كفنان تشكيلي في الوسط الثقافي في مدينة حلب حيث كان يجتمع بأهل الأدب والفكر ليثبت حضوره المتميز بطرحه أفكاراً جريئة متمردة لفتت الأنظار نحوه ، وما يزال أبناء ذلك الجيل يذكرون طاولته في مقهى (البرازيل) المكان الذي جلس فيه يكتب ويرسم ، كما كانت تستوقف المارة لوحاته السريالية المعروضة في واجهات المكتبات ، وهي لوحات حملت مفاهيم لم تكن معروفة في ذلك الوقت في بلدنا

وفي عام 1952 يشارك فاتح في المعرض الرسمي الذي يقام في دمشق إلى جانب أبرز الفنانين السوريين ، وينال الجائزة الأولى في التصوير على لوحته (كفر جنة) التي اعتبرها النقاد آنذاك في طليعة الأعمال التصويرية في الفن السوري ، وقد تحدث الفنان والناقد التشكيلي أسعد عرابي عن هذا الحدث بقوله :

(يشهد عام 1952 التجلي الأول لفن فاتح المدرس من خلال عرضه للوحته العمودية الشهيرة (كفر جنة) المنجزة بالألوان الزيتية على قماش بقياس

70 ×50 سم كان ذلك خلال المعرض السنوي الرسمي الذي يقام في المتحف الوطني بدمشق .

تمثل اللوحة مشهداً ريفياً من توءم ضيعة طفولته (حريتا) .. فلاحة تحمل على رأسها حصادها اليومي ، ممسوحة الملامح بسبب تأرجح لهيب الشمس في الأرضية ، يتحد جذعها بجذع شجرة معمرة في قلب الأرض البكر في وحدة تصل إلى حد الالتحام الذي لا يحتمل انفصاماً .

شحنت اللوحة بتقنية انتحارية حادة التعبير ، لم تكن بعد مألوفة في التعبيرية السورية ، وذلك من خلال تراكم تضاريس المادة الصباغية وتؤثر خطوط العناصر الموضوعة في عكس الشمس ، وبتضاد لوني هائل ، ناهيك عن عنف اللمسات المرسومة ، فأكسبت هذه الشروط المأساوية تياراً انفعالياً جارفاً مجبولاً بطبيعة المادة والأدوات التشكيلية نفسها).

لقد كونت لوحة كفر جنة انعطافاً واضحاً في انطلاقة فاتح المدرس التشكيلية بل كانت قفزة هامة في مسيرة التشكيل السوري في مطلع النصف الثاني من القرن العشرين .

وفي عام 1954 وضع المدرس مؤلفاً من ثلاثة أجزاء عرض فيه « موجز تاريخ الفنون الجميلة » مبتدئاً بكلمة تاريخية عامة تشمل الفنون عند الإنسان البدائي والشعوب القديمة ، ومستعرضاً أبرز المدارس والمذاهب الفنية في الغرب منذ عصر النهضة وحتى القرن العشرين .

وفي هذه الفترة تابع الفنان نشاطه الفني والأدبي ، كما تابع تدريسه لمادة الفنون في ثانويات حلب حتى جاء قرار إيفاده للدراسة الأكاديمية في روما عام 1956 .

وواضح مما سبق أن فاتح المدرس خضع إلى جملة من الظروف الاجتماعية والتاريخية التي ساهمت في تكوينه الفكري ونضوجه الفني ، ذلك أن انحداره من أسرة إقطاعية ثرية أكد لديه نزعة التفوق والسعي نحو التفرد والشهرة ، وإن كانت هذه النزعة تستتر وراء تواضعه وبساطته التي استمدها من البيئة الريفية التي عاش فيها طفولته مع أمه ، ثم إن انتماءه المزدوج أثار لديه الكثير من المواقف الاجتماعية والفكرية التي كانت تشكل له حافزاً من أجل تحقيق أهدافه ومشاريعه الفنية والأدبية .

وإذا كان تأثره بالفكر الوطني المناهض للاحتلال واضحاً منذ كان طالباً في التجهيز الأولى ، إلا أن تأثره بالفكر القومي السوري وبالثقافة الأوروبية تجلت منذ عودته من لبنان إثر دراسته اللغة الإنكليزية ، واحتكاكه بالمثقفين اللبنانيين الذين كانوا يتطلعون إلى نبذ المفاهيم التقليدية السائدة في المشهد الثقافي ، والأخذ بتيارات الحداثة الوافدة من الغرب ، وهذا ما دفع بفاتح المدرس إلى البحث عن أساليب جديدة في التعبير الفني سواء أكان ذلك على صعيد اللوحة الفنية أم القصيدة الشعرية أم الكتابة القصصية التي كان يوليها بعض اهتمامه ، ولعل إعجابه بالتجارب الشعرية المحدثة للشاعر الطبيب علي الناصر والشاعر أورخان ميسر تؤكد هذا الجانب .

وبالرغم من وجود عدد ممن درسوا الفنون دراسة أكاديمية في روما من أمثال (غالب سالم) و (وهبي الحريري) في مدينة حلب ، إلا أن تجاربهم الفنية المحدودة ، لم تكن تتجاوز المفاهيم المدرسية التقليدية للفن التشكيلي ولم تكن تجارب (فتحي محمد والفريد بخاش ونوبار صباغ) تزيد عن سابقيهم إلا ببعض التأثيرات الرومانسية ، ولم تكن التجارب الفنية الموجودة في دمشق تتجـاوز هذه الحالات ، فقد كانت أعمال (محمود جلال ورشاد قصيباتي وناظم جعفري وسعيد تحسين وميشيل كرشة) وغيرهم من الرواد لا تعدو أكثر من تجارب تقليدية مجتهدة تسعى نحو التجديد الشكلي بخطوات لاهثة .

وبعد أن تحررت البلاد من سيطرة الفرنسيين عام 1946 ، ونالت استقلالها شرع السعي الوطني نحو بناء الثقافة الوطنية ينمو ، ويأخذ أبعاداً جديدة أكثر تحرراً مما كان عليه ، وانصبت جهود المثقفين إلى خلق ثقافة وطنية تستمد وعيها من الموروث الثقافي للأرض العربية من جهة ومن الثقافة الغربية الوافدة من جهة أخرى ، وفي ظل هذا الوعي لمسألة الثقافة نشأت في سورية مشاريع نهضوية جديدة تمخضت عن إقامة المعارض الرسمية في دمشق برعاية وزارة المعارف ومديرية الآثار والمتاحف ، وتخصيص جوائز للفائزين من الفنانين ، وهذا ما جعل الفرصة متاحة لظهور موهبة المدرس الذي نال الجائزة الأولى في معرض 1952 الأمر الذي رشحه لمتابعة دراسته الفنية في روما مع عدد من زملائه الفنانين من أمثال : (لؤي كيالي – ممدوح قشلان – محمود حماد) .

وفي تلك الأثناء كانت البلاد تتأثر بأحداث سياسية هامة ، من أبرزها العدوان الثلاثي على مصر عام 1956 ، وقيام الوحدة بين سورية ومصر ، وكان على فاتح أن يصطحب معه أمه وزوجته إلى روما بالرغم من ضآلة المنحة المالية المخصصة له ، وقد اختار في دراسته بأكاديمية الفنون محترف الفنان الإيطالي « جنتلليني » الذي ترك أثره الواضح في منهج فاتح التعبيري الميتافيزيقي ، خاصة في جوانبه المعمارية وإيقاعاته التكوينية ونبراته اللونية .

وقد أخذ المدرس ينتزع المفاهيم التقليدية من أذهان تلامذته ، ويزرع بدلاً منها مفاهيم جديدة ، تعتمد الحرية في التعبير واستخدام الأدوات والوسائل المستحدثة ، عبر رؤى نافذة ، لا تتوقف عند حدود الشكل المدرسي ودراسة الظل والنور والنسب التقليدية ، مما ترك أثره الواضح في جيل الفنانين الذين اختطوا لأنفسهم مناهج جديدة في المسار الإبداعي للعمل الفني .

أما المحترف الذي اتخذه المدرس لنفسه في قلب مدينة دمشق ، فقد لعب دوراً هاماً في إغناء تجربته وكثافة إنتاجه ، وذيوع شهرته من خلال احتكاكه بالأوساط الثقافية والإعلامية ، فقد كان خلوة للفنان يفرغ فيها ما تجود به قريحته ، وسرداباً يصل ما بين عالم الواقع المادي المألوف إلى عوالم الإبداع المدهشة بما فيه من ملامح وجودية ، وأجواء فوضوية وقد شكل موئلاً للعديد من الفنانين والأدباء والمثقفين والمريدين الذين سحرتهم عوالم المدرس ، وهم يتبادلون أنخاب المعرفة وأسرار الإبداع .

إذا كانت الأعمال الأولى التي أنتجها المدرس إثر عودته من روما لم تفصح عن كل طاقته التعبيرية والتقنية ، إلا أنها تألقت فيما بعد إثر عودته من دراسته في باريس في مطلع السبعينيات ، متخذة لها منحى عمودياً يجعلها في طليعة التجارب التشكيلية السورية في تفردها وغناها ، بيد أن هذه التجربة الجديدة لم تحظ بالاهتمام المناسب في الأوساط الفنية التي كانت تسيطر عليها النزعات التقليدية ، بل إن بعضهم قابلها بالاستنكار والاستهجان ، وأخذ بعضهم ينظر إليها بعين الريبة والحذر ، حتى إذا ما استمرت في نضوجها وتألقها ، شكلت مدرسة خاصة استقى منها عدد كبير من الفنانين السوريين وما زالت تشكل حافزاً لمعظم التجارب التشكيلية في سورية .

تتميز اللوحة عند الفنان فاتح بجمالية خاصة تحمل بين طياتها الحداثة الفنية والجرأة في الأسلوب والأداء والموضوع المطروح ؛ وهي منسجمة تماما مع التكوين العام ، وتدل بوضوح على قدرة الفنان وموهبته المتقدمة في تفهم قضايا الفن ومهمة الفنان فيها ؛ وعلى بحثه الدائم للوصول إلى مدرسة عربية جديدة في الفن تضاهي المدارس الغربية وتنافسها ...

وقد استعرض الأستاذ طارق الشريف في كتابه عن فاتح المدرس أسماء موضوعات شتى معلقاً عليها بإسهاب وشارحاً لرموزها ومحتوياتها ، ويمكن للمتتبع الذي يعنيه الأمر أن يعود إليها ، في حين عرض الفنان أسعد عرابي بعض الإلماحات النقدية المتصلة بالموضوع الذي يعالجه المدرس ، حيث يقول :

(.. لوحة – التيس عاشق القمر – التي أنجزها عام 1971 تتضمن الموضوعات الأسطورية السومرية ..

.. ومذابح لبنان تلبس لبوس الطقوس الفينيقية ، وتأخذ معنى الأضاحي الوثنية ، يعتمر الكهنة فيها (اللبادة) المتطاولة ، الشائعة في تراث أزياء هذه الحقبة كما يتجسد الترحيل والنفي الجماعي للشعب الفلسطيني من خلال المسيرة الطقوسية الآرامية ، يشارك في جحافلها الكهنة والعباد والآلهة المذكرة والمؤنثة من أمثال بعل وعشتار الخ ..) .

وفي مقاله الهام (ساعات مع الفاتح) عرض المفكر (أنطون مقدسي) تحليلاً سيكولوجياً لعدد وافر من إنتاج المدرس في فترات متباينة مفصحاً عن قراءة واعية للموضوعات التي طرحها الفنان في أعماله مستخلصاً أبرز الأفكار والمرامي التي تضمنتها شخوص اللوحة ومفرداتها ، ومشيراً إلى الينابيع التي استقاها الفنان والأساليب التي جسد فيها أعماله وما عكسته من هموم وهواجس عاشها الفنان وهو ينتج هذه اللوحات من ذلك مثلاً لوحته (البراق يعود إلى القدس) :

(لوحة رسمها فاتح عام 1990 عندما كانت انتفاضة الأرض المحتلة والمقاومة اللبنانية ، قد سقنا طريقاً للأمام لتحرير القدس ، ومعلوم أن وجود العرب مرتبط ، وحدة ومعنى ، باستعادة المدينة المقدسة ، لكأن اللوحة تقول إن النقلة إلى القدس بحاجة إلى ما يشبه أو يحاذي معجزة البراق ، ولكن (براق) اليوم متعدد الوجوه والمواهب والقوى ، فوجهه وجه إنسان هادئ ، متزن ، واثق من نفسه ومن قدرته على تجاوز الأخطار كلها ، أما جسده فجسد حصان أسطوري له ملء الحيوية ، وظهره يتسع إلى ما شئت من فرسان ، بعضهم تشق رؤوسهم السحاب ، ولن يسقط عن ظهره إلا من تزل قدمه ، هذا تسحقه قوادم الحصان الشبيه بقوائم وحش مفترس).

وقد شكلت (معلولا) القرية الآرامية المحفورة في الصخر على كتف أحد جبال القلمون السورية مصدراً غنياً إنتاجه ، شأنه في ذلك شأن العديد من الفنانين السوريين أمثال : (لؤي كيالي – الياس زيات – نصير شورى – عبد الرحمن مهنا) وعشرات الفنانين الشباب ، فقد وجد فيها الفنان مسرحاً لتجاربه التشكيلية التي تجنح إلى التجريد من خلال الرصف المدماكي لبيوتها المتوضعة فوق بعضها بعضاً على نحو أسطوري ، فقد صورها الفنان في عشرات اللوحات ، عكس فيها رؤيته المفعمة بتصوراته الأسطورية وعوالمه الدرامية المتأججة ، بينما نجدها عند الكيالي بتشكيلاتها المألوفة ومناخاتها الصوفية الوادعة .

فاتح المدرس

- مواليد حلب 1922 .

- تتلمذ على يد الفنان وهبي الحريري في نهاية الثلاثينيات .

- عمل مدرّساً لمادة الفنون بحلب منذ منتصف الأربعينيات .

- شارك في المعارض الأولى التي نظمتها وزارة المعارف السورية منذ مطلع الخمسينيات .

- نال الجائزة الأولى في المعرض السنوي الذي أقيم في المتحف الوطني بدمشق 1952 .

- نال جائزة استحقاق من المعرض الدولي في جامعة ليكلاند – فلوريدا 1952 .

- سافر للدراسة في روما عام 1957 وتخرج من أكاديمية الفنون الجميلة بروما عام 1960 .

- نال الجائزة الأولى من أكاديمية الفنون الجميلة بروما 1960 .

- نال الميدالية الذهبية لمجلس الشيوخ الإيطالي 1962 .

- نال جائزة شرف من بينالي سان باولو 1963 .

- نال جائزة الدولة للفنون الجميلة 1968 .

- درّس في أكاديمية الفنون الجميلة في باريس ونال الدكتوراه 1972 .

- نال جائزة الشراع الذهبي في المعرض الخامس للفنانين العرب الذي أقيم في الكويت 1977 .

- أقام عشرات المعارض الفردية منذ عام 1955 لغاية 1997 في : سورية – نيويورك – باريس – مونتريال – الرباط – سان باولو – فرانكفورت – شتوتغارت - بون ...

- عضو المجلس الأعلى للفنون بدمشق وكان رئيس جمعية الفنون الجميلة وعمل أستاذ دراسات عليا في كلية الفنون الجميلة بدمشق .

- عضو مؤسس لاتحاد الفنانين التشكيليين العرب .

- أخرجت السينما السورية ثلاث قصص في ثلاثية له بعنوان (العار) 1973 .

- صدرت مجموعته القصصية (عود النعنع) بدمشق 1981, وأصدرت وزارة الثقافة عنه كتاباً أعده طارق الشريف 1991 .

- أصدر معهد العالم العربي بباريس كتاباً عنه وأنجز عنه فيلم وثائقي يعرض حياته وأعماله 1995 .

الفئة: فنون تشكيلية (/taxonomy/term/75)
الكاتب: ابراهيم داود

غرّد Share 0